جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
طرابلس

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

العدد الرابع والعشرون

1375 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2007 مسيحي

تصدر عن
كلية الدعوة الإسلامية
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

منهج علماء التجويد في دراسة الصّوت اللغوي

د. خالد مسعود خليل العيساوي
جامعة الفاتح

لقد تناول الصوت اللغوي العربي بالدرس مجموعة من علماء العربية، كعلماء النحو والصرف والمعاجم...، وقد كان هؤلاء يعالجون الصوت اللغوي من خلال ما ورد إليهم من كلام العرب شعره ونثره دون أن يكون هذا مقصوداً لذاته عندهم؛ إذ لم يمثل الصوت اللغوي المادة الرئيسة في دراساتهم، بل كان عرضاً يبرز أمامهم بين الحين والآخر وهم يعالجون مادة نحوية أو صرفية أو معجمية، ثم برز فريق من العلماء جعلوا جل اهتمامهم منصباً على دراسة الصوت اللغوي العربي من خلال النص القرآني خاصة، فصاروا متخصصين في هذا النوع من الدراسة أكثر من أي فريق آخر من علماء العربية، وأقصد بهذا

الفريق علماء التجويد الذين استطاعوا أن يخلصوا الدرس الصوتي من غيره من علوم العربية، ذلك أن مادة هذا النوع من الدراسة كانت مبثوثة في كتب اللغة والنحو والصرف وحتى كتب التفسير أحياناً، وعلى يد هؤلاء النفر من العلماء صارت مادة مستقلة غير مختلطة بغيرها، كما استطاع علماء التجويد أن يخطوا بالدرس الصوتي خطوات جد هامة، فبعجوا فيه أبواباً لم تدرس من قبل، وتطرقوا فيه إلى مسائل لم تكن لتستحوذ على انتباه من كان قبلهم من العلماء، ويكفي علماء التجويد شرفاً أنهم استطاعوا أن يستنبطوا لنا مصطلحاً جديداً للعلم الذي يعنى بالصوت اللغوي القرآني وهو مصطلح (التجويد).

ثم إن علماء التجويد، مع كبير جهدهم وعظيم ما قاموا به في مجال الدراسات الصوتية اللغوية، لم يبتدعوا لنا هذا العلم من بنات أفكارهم، بل إنهم انطلقوا فيه مما وجدوه مبثوثاً في كتب من سبقهم من نحويين وصرفيين ولغويين وغيرهم، فاستخلصوا من بين فرث ودم ليقدموه خالصاً سائغاً لمن رامه، وهم وإن شاركوا علماء اللغة في دراسة الصوت اللغوي فإن طبيعة دراستهم لهذه المادة العلمية جاءت مخالفة لطبيعة دراسة من سبقهم من العلماء لنفس المادة، وفي زعمنا فإن ذلك راجع إلى اختلاف هدف كل فريق من هذه الدراسة، وهذا ما نحاول أن نسبر غوره ونكشف سره في هذه الورقات؛ إذ نهدف من خلال هذا العرض إلى الوقوف على بعض الملامح التي تبين منهج علماء التجويد في الدرس اللغوي أولاً، ثم إلى بيان هدفهم من هذه الدراسة في المقام الثاني.

منهج علماء التجويد في الدراسات الصوتية

يختلف منهج علماء التجويد هنا عن منهج غيرهم لارتباط دراستهم قبل كل شيء بنص معين هو القرآن الكريم، فغاية ما يود علماء التجويد الوصول إليه هو النطق السليم لآي الذكر الحكيم، وهو ما دفعهم إلى دراسة أصوات اللغة،

وذلك لمعرفة مخارجها وصفاتها وما يطرأ عليها حالة تركيبها، منبهين إلى كيفية النطق السليم، محذرين من الانزلاق إلى الخطأ عند تلاوة كتاب الله المبين، لذلك فقد جاءت دراستهم معيارية عمادها الصحة والصواب، مخالفين بذلك منهج علماء اللغة القدامى الذين كانوا يميلون إلى المنهج الوصفي في دراسة أصوات اللغة، ثم إنهم ـ وصولاً إلى هذا الهدف ـ كان عليهم أن يتتبعوا كل ما يتعلق بالصوت اللغوي من أحكام حالة إفراده أو تركيبه من خلال النص القرآني الشريف؛ لذلك فقد اتسمت دراستهم بالشمولية، على غير ما نرى عند علماء اللغة الذين درسوا من الأصوات ما تعلق بأهدافهم الخاصة، فالخليل ـ مثلاً ـ قصد من الدرس الصوتي إلى وضع ترتيب جديد لأصوات العربية يسير عليه في معجمه، أما سيبويه فكان يهدف من الدرس الصوتي إلى استجلاء قوانين الإدغام، وأخيراً فإن علماء التجويد اتخذوا من أصوات اللغة مادتهم العلمية الوحيدة فتخصصوا فيها ولم يخلطوها بغيرها، على غير ما نلقى عند علماء اللغة الذين تناثر الدرس الصوتي في ثنايا كتبهم، باستثناء ابن جني الذي وضع كتاباً للدرس الصوتي خاصة، هو كتاب /**سر صناعة الإعراب**/، وفيما يلي تتبع وعرض لمنهج علماء التجويد في الدرس الصوتي.

1 ـ المعيارية:

معلوم أن المنهج الوصفي يكتفي بوصف الظاهرة المدروسة دون أن يحكم عليها بالصحة والخطأ، أما المنهج المعياري فإنه يصف الظاهرة ثم يتخذ نموذجاً معيناً يرتضيه بحكم معايير معينة، يقيس ما سواه عليه، فإن وافقه حكم عليه بالصحة والصواب، وإلا خطّأه، وهذا ما نراه عند علماء التجويد الذين اتخذوا معياراً معيناً لنطق أصوات اللغة وجعلوا منه مقياساً يعرضون عليه غيره.

والمعيارية نلمسها عند الصفاقسي (ت سنة 1118هـ) حين يقول متحدثاً عن صوت الشين: «ويقع الخطأ فيها من أوجه منها تفخيمها فاحذر منه، لا سيما

إن أتى بعدها حرف مفخم نحو شاء الله. . . وشاخصة، ومنها إبدالها جيماً في نحو الرشد»[1].

ولا شك أن جنوح القارئ إلى صوت الشين التي كالجيم لا يخرجه عن النطق العربي الفصيح؛ ذلك أن هذا الصوت يعد من الفروع المستحسنة، غير أن المنهج الذي ارتضاه علماء التجويد يقودهم إلى الحكم على ما خالف الأنموذج الذي قدموه بالخطأ، لتتجلى بذلك المعيارية في أوضح صورها.

وقد أوضح الصفاقسي منهجه في كتابه بعد حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها فقال: «ذكرنا الحروف مجملة، ونذكرها الآن مفصلة. . . مع التنبيه على شيء يقع الخطأ فيه كثيراً للقراء، مع تمثيل جميع ذلك بألفاظ من كتاب الله»[2]، فهو يذكر مخرج الصوت وصفته، ثم يشرع ببيان ما يمكن أن يقع فيه القارئ من خطأ دون أن يفوته تبيين علة ذلك النطق الخاطئ، بغية بيان كيفية النطق السليم.

ومن ملامح هذه المعيارية ما نراه عند مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) في آخر كتابه (**الرعاية**) حين أخذ يتكلم عن أصوات العربية مبيناً كيفية وجوب نطقها، وما يمكن أن يقع فيه القارئ من أخطاء إذا لم يلتزم بما يبين لنا من أحكام، فمن ذلك حديثه عن صوت التاء حين قال: «يجب على القارئ أن يلفظ بها إذا كان بعدها ألف بالترقيق، كما يلفظ بها إذا حكاها فقال: (باء ـ تاء) وذلك نحو: ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ و﴿تَأۡكُلُونَ﴾. . . و﴿قَالَتَآ﴾. . . وشبهه. وإذا وليت التاء الساكنة طاء، أبدل منها طاء وأدغمت في الطاء التي بعدها، فيجب على القارئ عند ذلك أن يتحفظ بإظهار الإدغام والإطباق والاستعلاء. . . وإذا لقيت التاء

---

(1) تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين، أبو الحسن علي بن محمد النوري الصفاقسي، تقديم وتصحيح محمد الشاذلي النيفر، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله البلد تونس، ص 93.

(2) المصدر السابق ص 41.

الساكنة تاء أخرى وجب أن يبين الإدغام والتشديد في ذلك، وذلك نحو. . . ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾[3]. . . وإن تكررت التاء في كلمة وجب أن يبين التكرير بياناً ظاهراً نحو. . . ﴿تَتَجَافَىٰ﴾. . . وإذا وقعت التاء متحركة قبل الطاء وجب التحفظ ببيان التاء؛ لئلا يقرب لفظها من الطاء»[4]. . . وهكذا يسير في هذا الفصل من الكتاب، مبيناً النطق الصحيح ومحذراً من النطق الخاطىء، وإن كثرة استعمال كلمة (يجب)، ومشتقاتها، عند مكي وغيره من علما ءالتجويد ليشي بذلك المنهج المعياري الذي يسيرون على هديه.

2 ـ الشمولية:

لقد جاءت الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لتحيط بالصوت اللغوي في جميع حالاته وهيئاته، إذ عنوا بدراسته مفرداً بمعرفة مخرجه وصفاته، ومركباً بمعرفة ما يطرأ عليه من تغيرات بسبب مجاورته لغيره من الأصوات، ما قادهم إلى دراسة بعض المسائل مثل الإدغام والإخفاء والإظهار والإقلاب والإشمام والإمالة. . .، أي أنهم درسوا الصوت اللغوي من جانبيه التطبيقي والوظيفي، وهو ما جعل دراستهم تتصف بالشمولية والعمق.

وقد لخص ابن أم قاسم المرادي (ت 749هـ) الأمور التي يتصدى لها بالدراسة علماء التجويد بقوله: «إن تجويد القراءة يتوقف على أربعة أمور: أحدها معرفة مخارج الحروف، والثاني معرفة صفاتها، والثالث معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب من أحكام، والرابع رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار»[5].

---

(3) سورة البقرة الآية 16.

(4) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب، تح. الدكتور أحمد حسن فرحات، توزيع دار المكتبة العربية، ص 178 ـ 180.

(5) شرح الواضحة في تجويد الفاتحة، تح. الدكتور عبد الهادي الفضلي، دار القلم، بيروت، ص 30.

وربما يكون من المفيد الوقوف على الأمر الرابع قليلاً؛ إذ انفرد بالحديث عنه علماء التجويد لارتباطه الوثيق بالهدف التعليمي عندهم، فمسألة الأخذ عن المشايخ جد مهمة عند علماء التجويد، ذلك أن حسن أداء القرآن لا يتأتى بالمدارسة بل بالمشافهة؛ فهناك أمور كثيرة مثل الإشمام والاختلاس ومقدار المدود وكيفية الإدغام والإخفاء... وغيرها لا تدرك إلا بالمشافهة وكثرة تمرين اللسان عليها، لذلك يقول ابن الجزري: «ولا أعلم سبباً لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد ووصول غاية التصحيح والتسديد مثل رياضة الألسن والتكرار على اللفظ المتلقي من فم المحسن»(6).

وقد ذيل علماء التجويد ذلك كله بأن استحسنوا في مقرىء القرآن خاصة أن يكون خالياً من عيوب النطق، ليكون أداؤه سليماً، وتعليمه الناس صحيحاً قويماً، وقد أشار المرادي إلى ذلك بعد أن بين الأمور التي يدرسها علماء التجويد فقال: «وأصل ذلك كله وأساسه تلقيه من أولي الإتقان وأخذه عن العلماء بهذا الشأن، وإن انضاف إلى ذلك حسن الصوت وجودة الفك وذرابة اللسان وصحة الأسنان كان الكمال»(7).

ويمكن القول إن جهود علماء التجويد اشتملت على «الموضوعات الأساسية في علم الأصوات النطقي وهي:

1 ـ إنتاج الأصوات اللغوية وتقسيمها، ويتضمن ذلك دراسة آلة النطق ومخارج الحروف وصفاتها.

2 ـ دراسة ما ينشأ عنها من الأحكام، أي الظواهر الصوتية، عند تركيبها في الكلام المنطوق، وشمل أيضاً دراسة موضوعات تكميلية هي:

---

(6) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الفكر، دمشق، ج1 ص 213.

(7) شرح الواضحة في تجويد الفاتحة ص 30.

أ - رسم منهج تعليمي للأصوات يتمثل في التلقي المباشر عن المعلم المتقن أولاً، ثم التدريب المستمر على النطق ثانياً، وهو ما عبر عنه علماء التجويد برياضة اللسان. . .

ب - معالجة عيوب النطق أو أمراض الكلام»[8].

التخصصية:

سبق ورأينا أن الدرس الصوتي عند علماء اللغة لم يكن مقصوداً بقدر ما كان وسيلة لأغراض معجمية أو صرفية، في حين أنه عند علماء التجويد مقصود لذاته بهدف تقويم النطق عند تلاوة القرآن الكريم ووضع ضوابط واضحة لهذا النطق، فالهدف صوتي خالص والوسيلة كذلك.

لذا فإنه كان على علماء التجويد أن يؤسسوا لهذا العلم الجديد وأن يوضحوا معالمه ويبينوا مسالكه، وكان ذلك من أولى أهدافهم، حيث سعوا إلى لملمة شتات الدراسات الصوتية المبعثرة في بطون كتب اللغة والنحو، ليتم بعد ذلك تخليصها مما علق بها من دراسات غير ذات صلة وثيقة بها، ثم كانت الخطوة الأخيرة والمهمة، وهي وضع تسمية جديدة لهذا العلم الجديد ألا وهي **(علم التجويد)**، وبذلك صاروا أرباب الدرس الصوتي دون سواهم، ولسنا نراهم يتعرضون في الغالب إلا لمسائل هذا العلم، وإن استطردوا إلى غير مسائل التجويد فلسببين هما: صلة ما استطردوا إليه بعلم التجويد، والرغبة في إتمام الفائدة لصالح القارىء؛ ذلك أن علماء التجويد «كانوا مدركين للحدود التي تفصل علم التجويد عن العلوم الأخرى التي تتصل به من بعض الجوانب، وأنهم كانوا حين يضطرون إلى ذكر بعض المباحث التي ترجع إلى بعض تلك العلوم يصرحون بأن هذه المباحث ترجع إلى هذا العلم أو ذاك؛ حرصاً منهم على أن تظل

(8) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق الطبعة الأولى، 1986، ص 98.

موضوعات علم التجويد متميزة عن مباحث العلوم الأخرى خالصة من شوائبها»[9].

ولعله من باب إتمام الفائدة يكون من المستحسن الوقوف عند أحد علماء التجويد لبيان منهجه في دراسة الصوت اللغوي من خلال كتابه، وسيكون الأنموذج المختار هنا هو كتاب **(الرعاية)** لمكي بن أبي طالب القيسي، إذ يمكن أن نعده أول كتاب كامل يصل إلينا في علم التجويد، فما سبقه إما رسائل صغيرة، وإما منظومة ليس لها أن تمثل إلا خطوة في علم التجويد، ونقصد بالأولى ما كتبه أبو جعفر السعيدي وأسماه **(التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي)**، وبالثاني قصيدة أبي مزاحم الخاقاني المعروفة **(بالخاقانية)**.

منهج مكي في دراسة الصوت اللغوي

سبق وأن ساقنا البحث إلى الحديث عن منهج علماء التجويد بعامة في تناولهم الصوت اللغوي بالدراسة، فكان حديثنا حينئذ عاماً سريعاً، ويسوقنا البحث هنا من جديد إلى الحديث عن هذا المنهج ووسائله، ولكن هذه المرة عند عالم من علماء التجويد هو مكي بن أبي طالب؛ لنرى طريقته في دراسة الصوت اللغوي ووسائله في ذلك، وليعكس لنا ذلك كله طريقة التفكير الصوتي عند عامة علماء التجويد.

يمتاز منهج مكي في دراسة الصوت اللغوي بما يمتاز به منهج علماءالتجويد عامة، فهو منهج معياري يضع القاعدة الصوتية ويخطىء من يخالفها، كما أنه منهج تخصصي يتعرض بالدراسة للصوت اللغوي من خلال النص القرآني دون التطرق، غالباً، لغير ذلك من الموضوعات، ثم إنه منهج شامل، أي أنه يدرس الصوت اللغوي من جميع جوانبه، حالة إفراده وحالة

(9) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص 75.

اجتماعه بغيره من الأصوات بغية معرفة أثر كل صوت في الآخر.

وليس من غرضنا هنا التأكيد على هذا المنهج؛ فتلك خطوة سبقت في هذا البحث وإن بإيجاز، غير أننا سنعرض بالدرس لوسائل تحقيق ذلك المنهج من خلال كتاب **(الرعاية)**، لتتكون عندنا فكرة واضحة عن هذا المنهج، وهذا بيان ذلك:

إن الأساس الذي بنيت عليه دراسات علماء التجويد هو المعيارية، فكما أن النحو العربي نشأ لحفظ ألسنة الناس من الوقوع في الخطأ في عملية الكلام، فإن علم التجويد برز لصون الألسنة من الوقوع في اللحن أثناء تلاوة كتاب الله المبين، وإذا كان العربي لا يرتضي اللحن في لغته ويراه مسبة، فإنه أكثر نفوراً من هذا اللحن مع كتاب الله الكريم؛ بسبب قداسة هذا النص القرآني، وإذا كان الأمر كذلك، كان لزاماً على علماء التجويد وهو يضعون معاييرهم، أن تكون لديهم أسس يرتكزون عليها ويبنون عليها هذه المعيارية، وهو ما يحاول البحث إبرازه من خلال النقاط الآتية:

1 ـ الملاحظة:

إن العالم يمتاز عن غيره بقوة الملاحظة ودقة النظر، فالظواهر الكونية تمر على الناس كافة في الحياة اليومية، غير أن العالم وحده هو من ينتبه إليها ويدركها، ومن هنا برز مصطلح (اللحن الخفي) عند علماء التجويد، وسمي بذلك لأنه يخفى على عامة الناس ولا يدركه إلا العالم منهم، فوضع معيار للنطق الصحيح يعني وجود خطأ في عملية النطق، ووجود الخطأ يستدعي عالماً قادراً على ملاحظته، ومن هنا كانت الملاحظة هي الخطوة الأولى عند علماء التجويد، ولنستمع إلى مكي وهو يحدثنا عن ملاحظاته العلمية إذ يقول: «وكل ما ذكرته من هذه الحروف لم أجد الطلبة تزل به ألسنتهم إلى ما نبهت عليه، وتميل بهم طباعهم إلى الخطأ فيما حذرت منه، فبكثرة تتبعي لألفاظ الطلبة في

المشرق والمغرب وقفت على ما حذرت منه»[10]، ويقول: «وقد رأيت كثيراً من الطلبة يشددون لفظ (الخاء) من (الأخ) وذلك خطأ فاحش»[11].

فمكي لا يسوق قوانينه العلمية هكذا جزافاً، وإنما بعد أن يلحظ ويتدبر ما هو شائع على ألسنة الناس من لحن، ولذلك فإنه يكثر في كتابه من ذكر التحفظات في تلاوة كتاب الله الكريم، وهناك أمر آخر جدير بأن ننتبه إليه في نص مكي السابق، وهو ربطه بين اللحن وبين السليقة التي نشأ عليها الفرد، تلك الطبيعة التي تجتلب صاحبها نحو اللحن وإن كثرت المحاولات لجلبه نحو الصواب، وهذا أمر يقودنا إلى أمر آخر اعتمده مكي وغيره من علماء التجويد في تعليم كيفية النطق الصحيح وهو كثرة المران، وهو أمر سنعرض إليه لاحقاً.

ومن أمثلة ملاحظات مكي العلمية ما رآه من خلط الناس بين الظاء والضاد من جهة، وبين الظاء والذال من جهة أخرى، ذلك أن بعضهم ينحى بالظاء إلى مخرج الضاد فيخطىء في نطقها، وبعضهم يُذهب ما فيها من استعلاء فتصير كأنها ذال، والأمران كلاهما لحن، يقول مكي: «يجب على القارىء بيان الظاء لتتميز من الضاد... ومتى قصر القارىء في تجويد لفظ الظاء أخرجها إلى لفظ الضاد أو الذال، لا بد من أخذ هذين الوجهين، وذلك تصحيف وخطأ ظاهر، ويجب أن تعلم أيضاً أن الظاء تشبه في لفظها أيضاً الذال، فإذا أزلت لفظ الإطباق من الظاء صارت ذالاً، كذلك لو زدت لفظ الإطباق في الذال صارت ظاء»[12].

وقد لحظ مكي أن هذا النوع من اللحن من شأنه أن يغير معنى الكلام ويبدل وجهة الحديث ومساره، ويقول: «وإذا وقعت الظاء في كلمة تشبه كلمة أخرى بالذال بمعنى آخر وجب البيان للظاء؛ لئلا يُنتقل إلى معنى آخر، وذلك

(10) الرعاية ص 144.

(11) السابق ص 142.

(12) السابق ص 194 ـ 195.

نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[13]، أي: ممنوعاً: فهو بالظاء فبينه لئلا يشتبه في اللفظ بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[14]، فهذا بالذال من الحذر»[15].

كما من شأن هذا النوع من اللحن أن يتحول بالمرء من لغة إلى أخرى، يقول مكي: «فإذا وقعت الكاف في موضع يجوز أن تبدل منها قاف في بعض اللغات، وجب أن تبين الكاف، لئلا تخرج من لغة إلى لغة أخرى، وذلك نحو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾[16]، ألا ترى أنه في حرف ابن مسعود (قشطت) بالقاف، فالبيان لازم»[17].

بقي أن نشير إلى أمر في هذا السياق وهو أن مكي بن أبي طالب في ملاحظته للخطأ استخدم مجموعة من المصطلحات العلمية من مثل: اللحن والخطأ والقبح والمخالطة والالتباس والتعسف. . .، وهذه أمثلة على ذلك:

أ ـ اللحن:

ومنه حديثه عن وجوب بيان سكون الياء في مثل: (رأيت) إذ يقول: «وإذا سكنت الياء التي هي لام الفعل لاتصال المضمر المرفوع بها، وجب أن يتحفظ ببيان سكونها لئلا يدخلها شيء من كسر، فيكون ذلك لحناً قبيحاً فيها»[18].

ب ـ الخطأ:

ومن ذلك حديثه عن وجوب بيان الهاء عند الحاء خوف أن تدغم أو تخفى

(13) سورة الإسراء الآية 20.
(14) سورة الإسراء الآية 57.
(15) الرعاية ص 195 ـ 196.
(16) سورة التكوير الآية 11.
(17) الرعاية ص 148.
(18) السابق ص 157.

فيها، يقول: «فتحفظ الهاء لئلا تزداد خفاء عند الحاء، أو تصير مدغمة في الحاء، وذلك كله خطأ»[19].

ج ـ القبح:

ومنه حديثه عن لزوم الوقف على (هاء السكت) وعدم إدغامها فيما بعدها حيث يقول: «فإن كانت الساكنة ـ أي الهاء ـ من كلمة أخرى، وهو موضع واحد في القرآن، فانو على الأولى الوقف، ولا تدغمها في الثانية، وإنما وقع ذلك في هاء السكت نحو قوله تعالى: ﴿مَالِيَهْ ﴿28﴾ هَلَكَ عَنِّي﴾[20]. الاختيار ألا تدغم الهاء الأولى الساكنة في الثانية وأن تنوي عليها الوقف، وقد أخذ قوم في ذلك بالإدغام والتشديد وليس بمختار؛ لأنه يصير قد أثبت هاء السكت في الوصل، وذلك قبيح»[21].

فالصاد مثلاً قد تختلط بالزاي إذا وقع بعدها صوت مجهور؛ ذلك أن الزاي صوت مشترك بين الصوتين، فهو متحد مع الصاد في المخرج والصفير، ومع الصوت المجهور في الجهر، يقول مكي: «وإذا سكنت الصاد وأتت بعدها دال وجبت المحافظة على تصفية لفظ الصاد لئلا يخالطها لفظ الزاي؛ لأن الزاي من مخرج الصاد وهي في الصفة أقرب إلى الدال»[22].

هـ ـ الالتباس:

فالصوت قد يدغم في غيره تحت ظروف معينة، غير أننا قد نتجاهل هذه الظروف فنظهره خوف أن يلتبس اللفظ بغيره، يقول مكي: «لو وقعت النون قبل الياء في كلمة لأظهرت ولم يحسن أن تدغم؛ لئلا يقع الالتباس بالمضاعف، وذلك نحو: بنيان وقنوان»[23].

---

(19) السابق ص 133.
(20) سورة الحاقة الآية 28 ـ 29.
(21) الرعاية ص 132.
(22) الرعاية ص 192.
(23) السابق ص 239.

و ـ التعسف:

يكاد يكون هذا المصطلح خاصاً بصوت الهمزة، ذلك أن المبالغ في إخراجها يكون متعسفاً حتى كأنه يشددها أو يقلقلها، لذلك فسر مكي التعسف هنا بقوله: «يجب على القارىء ألا يتكلف في الهمزة ما يقبح من ظهور شدة النبر بنبرة الصوت، وأن يلفظ بالهمز مع النفس سهلاً»[24].

وما يمكن ملاحظته على هذه المصطلحات التي استخدمها مكي أنها متنوعة الدلالة، بحيث يصلح كل منها لوصف حالة بعينها أكثر من صلاحيته لوصف غيرها، فـ(اللحن) ـ على سبيل المثال ـ مصطلح ذو علاقة بالجانب الدلالي للكلمة، ولذلك نراه شائعاً عند النحاة؛ إذ لا شك أن تغير حركة أواخر الكلم يقود إلى تغير المعنى والوظيفة، أما مصطلح (الخطأ) فلا علاقة له بالمعنى، وإنما هو تعبير عن الحيد بنطق الصوت من الصواب إلى الخطأ، وعندما يزداد هذا الخطأ فداحة يعبر عنه مكي بـ(الفحش) أو (القبح)، وإذا ما نظرنا إلى مصطلح (المخالطة) وجدنا أنه يعبر عن ذاته بشكل مباشر، ذلك أن الصوت في بعض صوره يخالط غيره من الأصوات المشاركة له في المخرج أو الصفة لعلة ما، وهذا قد يكون لحناً متى ما كان القارىء يتبع قراءة لا تسير على هذا النسق، أما مصطلح (الالتباس) فهو الآخر يكاد يكون لصيقاً بالمعنى؛ فاللفظة إذا ما نطقت على غير ما ينبغي لها قد تلتبس بغيرها فيضيع المعنى، وأخيراً فإن مصطلح (التعسف) يكاد هو الآخر يشي بانطباقه على المغالاة في نطق صوت الهمزة، والقارىء في كل ذلك مطالب بأن ينطق أصوات القرآن الكريم بغير إفراط ولا تفريط، ولذلك يعرف التجويد على أنه إعطاء الحروف حقها ومستحقها، يقول ابن الجزري في مقدمته:

وهو إعطاء الحروف حقها   من صفة لها ومستحقها[25].

---

(24) السابق ص 120.

(25) شرح المقدمة الجزرية ص 33.

2 ـ الاستقراء:

بعد مرحلة الملاحظة العلمية الدقيقة تأتي مرحلة الاستقراء، ذلك أن العالم يلحظ بما آتاه الله من قدرة ما شاع على ألسنة الناس من لحن وبعد عن الصواب، فيفزعه ذلك ويهرع إلى البحث عن طريقة لعلاج هذا المشكل.

ولكي يكون العلاج ناجعاً لابد أن يكون شاملاً لكل ما يمكن أن يقع فيه الناس من خطأ، وهذا لا يكون إلا بتتبع كل تلك الأخطاء ورصدها، فالاستقراء هنا كامل ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً، بعكس استقراء علماء اللغة الذي يقوم في مجمله على جمع الأمثلة والشواهد، وليس يقف الأمر عند هذه المرحلة عند علماء التجويد، بل يتعداه إلى استقراء أحوال أصوات العربية حال الإفراد وحال التركيب؛ وصولاً إلى وضع نمط معين ومعيار ثابت يسير على الطلاب وهم يتعاملون مع أصوات القرآن الكريم، ومن هنا نستطيع أن ننظر إلى الاستقراء عند مكي بن أبي طالب وعلماء التجويد من هذه الجهات:

أ ـ استقراء أخطاء القراء:

فما دامت فكرة البحث عند مكي وغيره من علماء التجويد تقوم على أساس وجود لحن في تلاوة القرآن الكريم وجب تتبع مواطن هذا اللحن أولاً، فالطبيب إنما يضع العلاج بعد معرفة موطن الداء، وهذاما نراه عند مكي من خلال عدة نصوص، فمكي لم يضع كتابه إلا بعد سنوات عديدة نصب نفسه فيها لجمع أكبر قدر من مظاهر اللحن التي تطرأ في تلاوة الكتاب المبين، ولذلك يقول: «ولقد تصور في نفسي تأليف هذا الكتاب وترتيبه من سنة تسعين وثلاثمائة، وأخذت نفسي بتعليق ما يخطر بباله منه في ذلك الوقت»(26)، وقد أخرج مكي كتابه هذا للناس بعد ثلاثين سنة من استحواذ الفكرة عليه، أي أنه أمضى كل هذه السنوات وهو يلحظ ويدون أخطاء الطلبة والمقرئين.

---

(26) الرعاية ص 42.

ويصرح مكي مرة أخرى بأنه يعالج أخطاء صارت تشكل ظاهرة بين الناس، بل إن كثيراً ممن تصدروا للإقراء هم أنفسهم ممن قد يقعون في هذه الأخطاء؛ لخفائها أحياناً ولصعوبة التعامل مع بعض الألفاظ أحياناً أُخَر، يقول مكي متحدثاً عن وقوع غالب الناس في اللحن وهو ينطقون الضاد: «يجب على القارىء أن يلفظ الضاد إذا كان بعدها ألف بالتفخيم البين، كما يلفظ بها إذا كان يحكي الحروف. . . ولا بد من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت، فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة»(27)، فالأمر إذاً قد يتجاوز المبتدئين ليصل القراء والأئمة.

ب ـ استقراء أحوال أصوات العربية حالة الإفراد:

على عالم التجويد هنا أن يتتبع العرب الفصحاء في نطقهم الصوت اللغوي؛ كيما تتبين له الصورة المثلى للتعامل مع هذا الصوت أو ذاك، ولكي يكون لديه النموذج الصحيح للنطق بأصوات اللغة، بحيث يستطيع أن يقيس نطق الناس عليه، فما وافق هذا النموذج كان صحيحاً وما خالفه حكم عليه في راحة بال بأنه خطأ، ومن هنا عمد مكي كغيره من علماء التجويد إلى إجراء عملية استقراء كاملة يتبين من خلالها النطق الصحيح للصوت اللغوي العربي، يقول مكي: «لم أزل أتتبع ألقاب الحروف التسعة والعشرين وصفاتها وعللها حتى وجدت من ذلك أربعة وأربعين لقباً صفات لها وصفت بذلك على معان ولعلل ظاهرة فيها»(28).

ج ـ استقراء أحوال التقاء الأصوات العربية وأثر هذا الالتقاء:

ليس يكفي عالم التجويد أن ينظر في الصوت اللغوي مفرداً فيعرف مخرجه ويدرك صفاته، فذلك وإن كان يوقفه على الطريقة المثلى لنطق الصوت

---

(27) السابق ص 158.

(28) السابق ص 91.

فإنه يغيب عليه جانباً آخر بالغ الأهمية في عملية النطق، ألا وهو ما يمكن أن يطرأ على هذا الصوت وهو يلاقي بشكل مباشر أو غير مباشر غيره من أصوات اللغة، فالصوت قد يحتفظ بشخصيته عندما يلاقي بعض الأصوات، غير أن ذلك لا يكون في جميع الأحوال؛ فالأصوات يؤثر بعضها في بعض مما يغير طريقة التلفظ بها، ومن هنا وجب على عالم التجويد وهو يعالج أخطاء المقرئين أن يحيط علمه بكل تلك التغيرات التي تطرأ على الصوت اللغوي إذا ما أثر فيه غيره، وهو نراه عند مكي وهو يدرس موضوعات مثل: الإدغام والإخفاء والإقلاب والإمالة... وغيرها مما يمكن إجماله تحت باب الانسجام الصوتي لألفاظ القرآن الكريم.

3 ـ وضع المعيار الصحيح:

عندما يدرك عالم التجويد مواطن اللحن ومواضع الخطأ السارية على ألسنة الناس بما أوتي من قدرة على امتلاك زمام الملاحظة العلمية الدقيقة، ويستقري من كلام العرب الفصحاء كيفية التلفظ بالصوت اللغوي حالة الإفراد والتركيب، لم يعد أمامه من عمل سوى وضع القواعد والأنماط الصحيحة التي تقود المقرئين للنطق السليم لأصوات القرآن الكريم، فبعد مرحلة تشخيص الداء تأتي مرحلة وصف الدواء، غير أن هذه المرحلة لها هي الأخرى أسس ترتكز عليها وتنطلق منها، وفيما يلي عرض موجز لأهم تلك الخطوات التي يسير عليها عالم التجويد في وضع النمط الصحيح والقاعدة السليمة للتعامل مع الصوت القرآني، وسيكون ذلك العرض من خلال ما كتبه مكي بن أبي طالب.

أ ـ وضع المقياس الصحيح لعملية النطق:

يرسم هنا علماء التجويد منهجاً واضحاً للمقرئين يميزون به الطريقة المثلى للنطق بالصوت اللغوي نطقاً سليماً، حتى تكون لهم كما الأنموذج المحتذى في تلاوة القرآن الكريم، ويكون ذلك بالتلفظ كما في حالة التهجي الاعتيادية، وذلك في معظم أصوات اللغة، فللراء واللام أحكامهما الخاصة التي ليس يسمح

المجال بعرضها الآن، يقول مكي: «وإذا وقع بعد الباء ألف وجب أن يرقق اللفظ بها كما يلفظ إذا حكاها فقال: (ألف، با، تا) فإنما عيار هذه الحروف في اللفظ أن يلفظ بها كما يلفظ بها إذا حكيت من الحروف، إلا الراء واللام»[29]، ويقول في موضع آخر: «يجب أن تلفظ بالكاف إذا كان بعدها ألف غير مغلظة، كما تلفظ بها إذا حكيتها في الحروف فقلت: (قاف، كاف)»[30].

وربما تجوز علماء التجويد رسم النمط الصحيح وتبيين كيفية النطق السليم إلى كشف النقاب عن الوسيلة التي يقدر المقرئون من خلالها على تمييز النطق السليم من الفاسد، فيتجاوز القارىء بذلك مرحلة التقليد إلى مرحلة القدرة الذاتية على التمييز، ومن ذلك الطريقة التي شرحها مكي، والتي يكون بمقدورنا إذا استعملناها التمييز بين النطق السليم للغنة وبين تعاطيها كما لو كانت نوناً مما يوقع صاحبه في الخطأ، يقول مكي: «فأنت تعرف صحة ذلك ـ أي صحة نطقك الغنة ـ أنك لو أردت للفظ بالنون الخفيفة (الغنة) أو التنوين، وأمسكت أنفك لم يمكن خروج الغنة التي في النون، وخرجت النون بغير غنة مع تغير الصوت بالنون عند عدم الغنة»[31]، وكأن مكياً هنا يود السمو بالطالب من مجرد التلقي إلى المقدرة على التحليل والتمييز، وهو ما يشي بالهدف التعليمي لعلماء التجويد الذي أشرنا إليه.

هذا ولم يكن مكي ليوضح الخطأ للطالب ثم يرسم له الصورة الصحيحة للنطق السليم دون أن يشفع ذلك كله بذكر العلة، علة التزامه بهيئة النطق التي يحددها لطلب العلم؛ حتى يصير الطالب بعد ذلك على اقتناع كامل بما يورده له المعلم من أحكام، ومن أمثلة ذلك حرصه على تبيين صوت التاء متى كان سابقاً للدال متبعاً قوله هذا بذكر العلة في ذلك لكي يرسخ الحكم في ذهن المتلقي، يقول: «وإذا وقعت التاء المتحركة قبل دال وجب بيانها؛ لئلا تصير دالاً؛ لأنها

(29) الرعاية ص 203.

(30) الرعاية ص 147.

(31) السابق ص 214.

من مخرج الدال، والدال أقوى منها؛ لأنها مجهورة شديدة كالطاء، فهي تجذب الحرف الذي قبلها إلى لفظها لأنها أضعف منها وهو من مخرجها، وذلك نحو: اعتدنا»[32]، والحركة لا تمنع تأثير صوت في صوت آخر في مثل هذه الحالات عند مكي وإن فصلت بين الصوتين، ولذلك يقول: ويجب «كذلك تبيين التاء المتحركة قبل الطاء وإن حال بينهما حائل نحو: اختلط، وإن لم تبين التاء مرققة مع ترقيق اللام قربت من لفظ الطاء التي بعدها، وصارت اللام مفخمة وذلك إحالة وتغيير»[33].

ب ـ المران والتدريب:

عندما يدرك عالم التجويد مواطن الخطأ عند الطلاب ويجمع معظمها، ثم يصف لها الدواء المناسب، يبقى أمامه أن يسحب ذلك اللحن من ألسنة الطلاب ليحل محله الصواب والنطق السليم، وإذا كان هؤلاء الطلاب يقعون في الخطأ بطباعهم وسليقتهم كما أشار مكي من قبل، وجب محاربة هذه السلائق الفاسدة والطباع غير المستقيمة في التلفظ بأصوات اللغة، وذلك إنما يكون بالمران وكثرة التدريب؛ ذلك أنه من غير المتوقع أن يحيد المرء عن خطأ اعتاد لسانه عليه دون أن يمرن نفسه على الصواب مرات عديدة، ومن هنا ركز علماء التجويد على عامل التمرين والتدريب على أنه وسيلة هامة في الوصول إلى النطق السليم لألفاظ القرآن الكريم، يقول مكي متحدثاً عن وجوب التحفظ في نطق الضاد وأن الخطأ في نطقها إنما يكون بسبب عدم المران والتدريب على التعامل مع هذا الصوت الصعب: «ولا بد من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت، فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة، لصعوبة من لم يدرب فيه»[34].

ولذلك كله لا يمكن ـ حسب مكي ـ لقارىء ما أن يعتمد على طبعه

---

(32) السابق ص 181.

(33) السابق، الصفحة نفسها.

(34) الرعاية ص 214.

وسجيته في قراءة القرآن إلا بعد مران وتدريب، حتى يصير بعد ذلك النطق الصحيح عادته وسجيته، يقول مكي: «والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ، فمتى لم يتكلف القارىء إخراجها على حقها أتى بغير لفظها وأخل بقراءته، ومن تكلف ذلك وتمادى عليه صار له التجويد بلفظها عادة وطبعاً وسجية»[35]، وقد لخص ابن الجزري في مقدمته المنظومة هذا المعنى بقوله عن التجويد:

«ولــيــس بــيــنــه وبــيــن تــركــه إلا ريــاضــة امــرىء بــفــكــه»[36].

ج ـ الالتزام بالمروي وعدم الاعتماد على السجية:

فعلماء التجويد يقررون أمراً بالغ الأهمية ها هنا، وهو عدم الاعتماد على المقدرة الذاتية وتخطي الأخذ عن المشايخ وأرباب هذا الفن؛ ذلك أنه ليس بمقدور المرء مهما أوتي من مقدرة علمية أن يعتمد على نفسه في قراءة القرآن الكريم؛ فللفظ القرآني أحكامه الخاصة وأحواله المتميزة التي لا تدرك إلا باتباع الرواية وإحسان الاستماع ودقة الإصغاء، هذا إلى أن القراءة سنة متبعة لا مجال للاجتهاد فيها، ثم إن الاعتماد على النفس في تلاوة الكتاب المبين من شأنه أن يقود المرء إلى اللحن، وقد رأينا من خلال حديث مكي أن الطبع والسجية ليس يسلم صاحبهما من الخطأ إلا بعد طول المران على الصحة والصواب، ويبدو أن هذا الأمر قد واجه علماء التجويد فوضعوا له الضابط الملزم والحد الرادع، يقول مكي مبيناً خطورة هذا الأمر: «وبيس قول المقرىء والقارىء: أنا أقرأ بطبعي، وأجد الصواب بعادتي في القراءة لهذه الحروف من غير أن أعرف شيئاً مما ذكرته بحجة. بل ذلك نقص ظاهر فيهما؛ لأن من كانت هذه حجته يصيب ولا يدري ويخطىء ولا يدري، إذ علمه واعتماده على طبعه وعادة لسانه، يمضي معه [أين ما] مضى به من اللفظ، ويذهب معه [أين ما] ذهب، ولا يبني على أصل، ولا

(35) السابق ص 159.

(36) شرح المقدمة الجزرية ص 33.

يقرأ على علم، ولا يقرىء عن فهم. فما أقربه من أن يذهب عنه طبعه، أو تتغير عليه عادته، وتستحيل عليه قراءته، إذ هو بمنزلة من يمشي في ظلام في طريق مشتبه، فالخطأ والزلل منه قريب، والآخر بمنزلة من يمشي على طريق واضح معه ضياء؛ لأنه يبني على أصل وينقل عن فهم، ويلفظ عن فرع مستقيم وعلة واضحة، فالخطأ عنه بعيد»[37].

وإذا صار لزاماً على قارىء القرآن أن يتبع الرواية ويتلقى عن غيره من العلماء، فإنه لمن الواجب عليه أن يتخير من يأخذ عنه أصول هذا العلم؛ فليس سواء عالم وجهول، فالقراء يتفاوتون فيما بينهم علماً ودراية، والطالب الفطن هو من يتخير لنفسه أفضلهم، ومن هنا حدد العلماء ـ ومنهم مكي بن أبي طالب ـ صفات المقرىء الذي ينبغي على الطالب أن يلزم نفسه به ولا يتعداه إلى غيره، يقول مكي: «يجب على طالب القرآن أن يتخير لقراءته ونقله وضبطه أهل الديانة والصيانة والفهم في علوم القرآن، والنفاذ في علم العربية والتجويد بحكاية ألفاظ القرآن وصحة النقل عن الأئمة المشهورين بالعلم، فإذا اجتمع للمقرىء صحة الدين والسلامة في النقل والفهم في علوم القرآن والنفاذ في علوم العربية والتجويد بحكاية ألفاظ القرآن، كملت حاله ووجبت إمامته، وقد وصف من تقدمنا من علماء المقرئين القراءَ فقال: القراء يتفاضلون في العلم بالتجويد، فمنهم من يعلمه رواية وقياساً فذلك الحاذق الفطن، ومنهم يعرفه سماعاً وتقليداً فذلك الوهن الضعيف، لا يلبث أن يشك ويدخله التحريف والتصحيف؛ إذ لم يبن على أصل ولا نَقَلَ عن فهم، قال: فنقل القرآن فطنة ودراسة أحسن منه سماعاً ورواية، قال: فالرواية لها نقلها، والدراية لهاضبطها وعلمها، قال: فإذا اجتمع للمقرىء النقل والفطنة والدراية وجبت له الإمامة وصحت عليه القراءة، إن كان له مع ذلك ديانة»[38].

---

(37) الرعاية ص 228.

(38) الرعاية ص 69 ـ 70.

هدف علماء التجويد من الدرس الصوتي

إن هدف علماء التجويد من دراسة أصوات العربية هدف تعليمي محض، وذلك بتبيين كيفية النطق السليم لقرّاء القرآن الكريم والتحذير من النطق الخاطىء، وقد بين ذلك مكي في مقدمة كتابه **(الرعاية)** بعد أن تحدث عن حكمة الله وقدرته في ترتيب أصوات اللغة في مخارجها وتمييزه بينها حيث خص كل صوت منه بصفات مغايرة، فقال: «قويت نفسي في تأليف هذا الكتاب وجمعه في تفسير الحروف ومخارجها، وصفاتها وألقابها، وبيان قويها وضعيفها، واتصال بعضها ببعض، ومباينة بعضها لبعض؛ ليكون الوقوف على ذلك عبرة في لطف قدرة الله الكريم، وعوناً لأهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه وإحكام النطق به، وإعطاء كل حرف حقه من صفته، وإخراجه من مخرجه»(39) .

ولا يكون ذلك إلا بدراسة أصوات اللغة لمعرفة مخارجها الصحيحة وصفاتها المستحقة، ثم الوقوف على ما يطرأ عليها حال تجاورها، وقد دفع هذا علماء التجويد إلى الخوض في غمار علم الأصوات بفرعيه: النطقي والوظيفي، وبعبارة أخرى فإن هدف علماء التجويد من الدرس الصوتي هو تجنب (اللحن) في قراءة القرآن الكريم والمقصود باللحن ـ كما هو معلوم ـ الخطأ، فإذا كان علماء النحو يهدفون إلى تقويم ألسنة الذين يقعون في اللحن في استعمالهم اليومي اللغة، من رفع للمفعول ونصب للفاعل. . . وما شابه، فإن علماء التجويد يهدفون إلى تقويم ألسنة قراء القرآن الكريم وحفظها من الوقوع فيما سموه اللحن الخفي، وذلك حال تلاوتهم كتاب الله العزيز.

وقد التصق مصطلح (اللحن) بعلم التجويد منذ بداياته، فلقد رأيناه مروياً

(39) السابق ص 41.

عن أبي بكر بن مجاهد (ت 324هـ)، وورد كذلك في قصيدة أبي الفتح الخاقاني (ت 325هـ) حين قال[40]:

فأولُ عِلم الذكر إتقان حفظه ... ومعرفةٌ باللحن فيه إذا يجري

فكن عارفاً باللحن كيما تزيله ... فما للذي لا يعرف اللحن من عذر

ثم تردد هذا المصطلح في كتب علماء التجويد من المتأخرين خاصة، ونسبه بعضهم إلى مكي بن أبي طالب من المتقدمين في علم التجويد، غير أن الدكتور غانم الحمد استغرب ذلك قائلاً بعد أن أورد أقوالاً نسب أصحابها إلى مكي فكرة تقسيم اللحن إلى جلي وخفي: «يبدو لي أن ما ورد في كتاب (**إبراز المعاني**) لأبي شامة المقدسي غير صحيح من إسناد هذا التقسيم إلى مكي. . . وكذلك وردت هذه النسبة في كتاب (**موجز في التجويد**) ليوسف بن علي بن محمد الحلالي. . . فلم أجد لهذا القول أثراً في كتاب (**الرعاية**) لمكي، كما أني لم أجده يستخدم مصطلح (اللحن) في كتابه على الإطلاق، وإذا احتاج إلى التعبير عن معناه استخدم كلمة (تصحيف). . . وهو. . . يكشف لنا هنا عن أن مكياً لم يطلع على فكرة اللحن الخفي عند ابن مجاهد»[41].

ولسنا نرى ما رآه الدكتور غانم؛ فعدم اطلاع مكي على فكرة اللحن الجلي واللحن الخفي عند ابن مجاهد أمر مستبعد على من خصص نفسه بهذا النوع من العلوم فاستوعب ما كتب فيه في عصره وقبل عصره، وأما القول بأن مكياً لم يستخدم مصطلح اللحن في كتابه (**الرعاية**) على الإطلاق فيرد عليه مكي نفسه حين يقول في كتابه الرعاية: «فمن ائتم بكتابي هذا في تجويد ألفاظه وتحقيق تلاوته، ممن سلم من اللحن والخطأ. . . قام له هذا الكتاب على تقادم

(40) القصيدة الخاقانية في القراءة وحسن الأداء، أبو مزاحم الخاقاني، تح، الدكتور غانم قدوري الحمد، منشورة ضمن بحث بعنوان «علم التجويد نشأته ومعالمه الأولى» مجلة كلية الشريعة، بغداد، العدد السادس، السنة 1980، ص 122.

(41) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد حاشية ص 51.

الأعصار ومر الأزمان مقام المقرىء الناقد البصير الماهر النحرير»[42]، بل إن مكياً ميز بين اللحن الذي يقصده علماء التجويد وهو ما عالجه في كتاب **(الرعاية)** وبين اللحن الذي يقصده النحاة وهو ما عالجه في كتاب **(المشكل)** وقد استخدم هذا المصطلح في **(المشكل)** فقال: «وأفضل ما الطالب إليه محتاج معرفة إعرابه والوقوف على تصرف حركاته وسواكنه ليكون بذلك سالماً من اللحن فيه»[43].

واللحن عند علماء التجويد لحنان: جلي يتمثل في رفع المفعول ونصب الفاعل... وما شابه مما يدركه من له قليل صلة بعلوم العربية، وهو موضوع يهتم بمعالجته علماء النحو واللغة، ولحن خفي يمس ألفاظ القرآن الكريم، وذلك مثل تمطيط المدود والزيادة في تطنين النون... إلى غير ذلك مما نبه عليه علماء التجويد، وخير من تحدث عن هذا التقسيم السعيدي: «فاللحن الجلي هو أن يرفع المفعول وينصب الفاعل أو يخفض المنصوب والمرفوع، وما أشبه ذلك، فاللحن الجلي يعرفه المقرئون والنحويون وغيرهم ممن شم رائحة العلم... واللحن الخفي لا يعرفه إلا المقرىء المتقن... المعطي كل حرف حقه غير زائد فيه ولا ناقص منه، المتجنب عن الإفراط في الفتحات والضمات والكسرات والهمزات، وتشديد المشددات وتخفيف المخففات...»[44]، وقد نظر ابن الجزري (ت 833هـ) إلى اللحن نظرة أخرى، فجعل اللحن ثلاثة أقسام:

قسم يخل بالمعنى والعرف معاً، وقسم يخل بالعرف فقط، وهذا من اللحن الجلي، وقسم آخر يخل بالعرف دون المعنى أيضاً لكنه من اللحن الخفي

---

(42) الرعاية ص 43.

(43) مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، تح. الدكتور حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الإعلام العراقية الطبعة؟ السنة 1975، ج1 ص 63.

(44) التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي للسعيدي، نقلاً عن: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص 52.

الذي يهتم بدراسته علماء التجويد، قال ابن الجزري في كتابه التمهيد: «فأما اللحن الجلي فهو خلل يطرأ على الألفاظ فيخل بالمعنى والعرف، وخلل يطرأ على الألفاظ فيخل بالعرف دون المعنى، وأما اللحن الخفي فهو خلل يطرأ على الألفاظ فيخل بالعرف دون المعنى، وبيان ذلك أن الجلي المخل بالمعنى والعرف هو تغيير بعض الحركات عما ينبغي، نحو أن تضم التاء في قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[45]، أو تكسرها. . . والقسم الثاني من الجلي المخل بالعرف دون المعنى نحو رفع الهاء ونصبها من قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾[46]، واللحن الخفي هو مثل تكرير الراءات، وتطنين النونات، وتغليظ اللامات. . . وذلك غير مخل بالمعنى، ولا مقصر باللفظ، وإنما الخلل الداخل على اللفظ فساد رونقه وحسنه وطلاوته»[47].

وهناك قسم آخر من اللحن ربما لم يشر إليه مكي ,هو ما يدرك بالخط والرسم، ومنه ما لا يدرك إلا بمشافهة المشايخ، وق[فصل في ذلك أبو العلاء العطار (ت 569هـ) حين قال: «وأما الخفي فهو. . . على ضربين أحدهما: لا تعرف كيفيته ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة وبالأخذ من أفواه أولي الضبط والدراية، وذلك نحو مقادير المدات، وحدود الممالات. . . والفرق بين النفي والإثبات، والخبر والاستفهام. . . فأما الضرب الثاني من ضربي اللحن الخفي فإنه يتقيد بالخط، ويدرك وصفه بالشكل والنقط»[48]، ولذلك فقد فطن علماء التجويد إلى أهمية المشافهة والأخذ عن المشايخ فأكدوا عليها، ونهوا أن يعتمد المرء على نفسه في تعلمه القراءة الصحيحة للقرآن الكريم[49].

(45) سورة الفاتحة الآية 7.

(46) سورة الفاتحة الآية 2.

(47) التمهيد في علم التجويد لابن الجزري، تح، الدكتور غانم قدوري الحمد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1986، ص 77 ـ 87.

(48) التمهيد في التجويد للعطار، نقلاً عن الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص 56.

(49) انظر ص 16 من هذا البحث.

ثم إن على هذا التلميذ ألا يُسلّم بكل ما يقوله الشيخ؛ فقد يقع الأستاذ في اللحن من حيث لا يدري، فعليه أن يعرض ذلك على ما في كتب التجويد فيقارنه به ويوازن بينه وبينه، فإذا ما تأكد من صحته اتبع شيخه، وإلا اتبع ما في الكتب، وقد أوضح محمد المرعشي فقال: «فوجب علينا ألا نعتمد على كلام شيوخنا كل الاعتماد بل نتأمل فيما أودعه العلماء في كتبهم من بيان مسائل هذا الفن، ونقيس ما سمعنا من الشيوخ على ما أودع في الكتب، فما وافقه فهو الحق، وما خالفه فالحق ما في الكتب»[50].

وهذا يعني أن علماء التجويد أدركوا أن قراءة القرآن قراءة صحيحة تحتاج معرفة بكثير من الأمور الصوتية التي لا يدركها المرء إلا بالأخذ عن أهل العلم ممن تخصصوا في شأن القرآن الكريم وكيفية أدائه، ثم علموا أن على من يقرىء القرآن أن يكون محيطاً بكل ما يتصل به من أحكام خاصة ما كان له صلة بكيفية أدائه، فلما نصبوا أنفسهم لهذا الأمر تدافعوا إلى دراسة أصوات العربية؛ وصولاً إلى ذلك الهدف السامي وهو الأداء السليم لآي الذكر الحكيم، وصون ألسنة الناس عن اللحن فيه، بما وضعوا لهم من قواعد التلاوة وقوانين القراءة، وهو ما عرف عند الناس فيما بعدُ بعلم التجويد، وقد أوضح الدكتور الحمد ذلك فقال: «ويتضح. . . أن ملاحظة اللحن الخفي في قراءة القرآن ومحاولة معالجتها وتصحيح النطق بها كانت السبب الذي يقف وراء الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، وأنهم درسوا أصوات اللغة وحددوا صور نطقها الصحيحة، ورصدوا الانحرافات المتوقعة في نطقها. . . ليحترز الناطق منها ويجتنبها، وقد تحققت لعلماء التجويد بذلك فرصة لدراسة أصوات العربية دراسة لم تتحقق للنحاة الذين كانت تشغلهم دراسة الأصوات لمعالجة بعض القضايا الصرفية»[51].

---

(50) جهد المقل وبهامشه بيان جهد المقل، محمد المرعشي، تح. أبي عاصم حسن بن عباس بن قطب، مؤسسة قرطبة، ط1، 2004، ص 18.

(51) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص 59.

ويبدو أن فكرة تعليم الناس النطق الصحيح لأصوات العربية التي جاء بها علماء التجويد قد استفاد منها النحاة المتأخرون خاصة فضمنوها كتبهم وجعلوا منها هدفاً يضاف إلى أهدافهم السابقة، يقول أبو حيان الأندلسي (ت سنة 745هـ): «إنما ذكر النحويون صفات الحروف لفائدتين: إحداهما لأجل الإدغام... والفائدة الثانية ـ وهي الأوْلى في الحقيقة ـ بيان الحروف العربية حتى ينطق من ليس بعربي بمثل ما ينطق به العربي، فهو كبيان رفع الفاعل ونصب المفعول فكما أن نصب الفاعل ورفع المفعول لحن، كذلك النطق بحروفها مخالفة مخارجها... لحن»[52].

قائمة المصادر والمراجع

1 ـ التمهيد في علم التجويد لابن الجزري، تح. الدكتور غانم قدوري الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986.

2 ـ تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين، أبو الحسن علي بن محمد النوري الصفاقسي، تقديم وتصحيح محمد الشاذلي النيفر، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس.

3 ـ جهد المقل وبهامشه بيان جهد المقل، محمد المرعشي، تح. أبي عاصم حسن بن عباس بن قطب، مؤسسة قرطبة، ط1، 2004.

4 ـ الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، ط1، 1986.

5 ـ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب، تح. الدكتور أحمد حسن فرحات، توزيع دار المكتبة العربية.

6 ـ شرح المقدمة الجزرية، الشيخ زكريا الأنصاري، قدمه عبد السلام عبد المعين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.

(52) بغية المرتاد لتصحيح الضاد لعلي بن محمد بن غانم، نقلاً عن: الدراسات الصوتية عن علماء التجويد ص 49.

7 ـ شرح الواضحة في تجويد الفاتحة، بدر الدين الحسن بن أم قاسم المرادي، تح. الدكتر عبد الهادي الفضلي، دار القلم، بيروت.

8 ـ القصيدة الخاقانية في القراءة وحسن الأداء، أبو مزاحم الخاقاني، تح. الدكتور غانم قدوري الحمد، منشورة ضمن بحث بعنوان «علم التجويد نشأته ومعالمه الأولى» مجلة كلية الشريعة، بغداد، العدد السادس، السنة 1980.

9 ـ مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، تح. الدكتور حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الإعلام العراقية، 1975.

10 ـ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الفكر دمشق.